MERS
MIDDLE EAST RESEARCH AND STUDIES

Source : AN-NAHAR
Date : 31-8-93
Photo No. : 139

"غـــزة - أريـحـــا أولاً"

محاولة لتجاوز الانفعال الغريـزي

قد يكون من الصعب تحت الانفعال في هذه الايام عند سماع انباء التقدم المضطرد لما صار يسمى حل "غزة - اريحا اولا". فعلى رغم مرور عقدين على قبول العرب والفلسطينيين مبدأ الحل السلمي، لم نحضر انفسنا بما فيه الكفاية لهذه اللحظة التي يقول فيها الطرفان انها لحظة تاريخية كما حصل اليوم.

لم نحضر انفسنا خصوصا للانتقال من مفهوم التسوية المحض بمبادئ الشرعية الدولية، وبالكثير من البلاغة، الى واقع التسوية المرتكز اولا واخيرا على خلل في ميزان القوى قلما شهدنا له مثيلا.

فمع أن مسيرة مدريد لعبت دورا مهما في تحضير الجمهور العربي لتقبل فكرة الغزوف عما كان يعتبر "الحل الشامل والعادل"، الا ان الهبوط الى هذا الحد ما دون مفهومي الشمول والعدل لا يمكنه الا ان يثير ردود فعل غريزية. والغريزة العربية، كما هو معروف، تصب عادة في خانة الاستعجان والتنديد، فالتحوين، وكلها امور لا تفيد لمداواة هذه الدوخة الرهيبة التي ستنتاب اي عربي عندما يدرك انه فعلا امام تحول تاريخي فريد في قضية حكمت نظرتنا الى السياسة، وربما الى الحياة، منذ عقود.

تحول تاريخي؟ نعم وبكل تأكيد. مهما يكن تقويم هذا وذاك لطبيعة هذا التحول، صار مؤكدا اننا دخلنا مرحلة جديدة من تاريخ القضية الفلسطينية. ولعل كبرى المفارقات في هذا التاريخ ان التطابق بين البلاغة والواقع لم يحدث الا عندما صار الواقع بهذه المرارة. فالتحول التاريخي هو في النهاية اننا قبلنا فكرة الهزيمة، او بتعبير اكثر دقة، ان الفلسطينيين قبلوا اخيرا الاقرار بالهزيمة العربية، وانهم لم يعودوا يراهنون على تخطيها لوحدهم.

لكن التحول ليس احادي الجانب. فاذا كان مؤكدا اننا ندفع اليوم، بقبول حل "غزة - اريحا اولا"، ثمن الضربات المتراكمة منذ نصف قرن، فإنه يستحيل في الوقت نفسه اعتبار هذا الحل انتصارا اسرائيليا صرفا، بدليل ان الحكومة الاسرائيلية تجد نفسها مدفوعة الى القبول بأمور ظلت ترفضها حتى الامس القريب، وفي مقدمها الاتصال المباشر بمنظمة التحرير الفلسطينية. لذلك، لا بد من السعي لتخطي الخضة العاطفية الحتمية من اجل تقويم عقلاني لما يتضمنه حل "غزة - اريحا اولا".

واول معيار في هذا التقويم يكمن في تحديد هوية صاحب المشروع، او استرجاع مخاضه. هنا، يذكر ان الحكومات الاسرائيلية المتعاقبة منذ نهاية السبعينات تطلعت كلها، بطريقة او اخرى، الى فرصة للتخلص مما صار يسمى "قنبلة غزة الموقوتة". وقد سعت اسرائيل بالفعل الى تسويق فكرة تلريم غزة الى مصر. الا ان هذه الأخيرة رفضت باستمرار هذه المساعي اولاً لأن حكم الرئيس مبارك لم يكن راغباً في تكرار خطأ السادات في "كـمب ديفيد"، وثانياً لأن غزة بدت وكأنها غير قابلة لان تحكم من أي طرف يكن. وقد تعزز هذا الرفض مع صعود الحركة الأصولية في غزة، وهي المعروفة باتصالاتها التاريخية مع "الاخوان المسلمين" في مصر.

غير ان الاسرائيليين بدورهم عادوا يشعرون، مع تصعيد الانتفاضة هذه السنة، بضرورة ايجاد حلّ لقطاع غزة. فعاد يستهويهم احتمال الانسحاب منه.

ولمّا لم تكن مصر راغبة في تسلّم مقاليد الأمر في القطاع، أخذت تبرز الفكرة القائلة بأن منظمة التحرير هي وحدها الطرف القادر على المحافظة على شيء من الاستقرار في حال الانسحاب الاسرائيلي. ولا بد من التنويه بان هذه الفكرة لقيت تشجيعاً اكيداً لدى المسؤولين المصريين الراغبين بمنع الحركة الاصولية المصرية من التمتع بقاعدة لها على الحدود. غير ان منظمة التحرير، وإن بدت مستعدة لاستلام غزة، في حال الانسحاب الاسرائيلي، فانها لم تكن قادرة على الاتفاق على ترتيبات رسمية مع اسرائيل من دون الحصول على تقدّم مماثل في الضفة الغربية. وهذا ما عبّر عنه صراحة الرئيس ياسر عرفات في مقابلة مع احدى الصحف الاسرائيلية، طالب

فيها بانسحاب اسرائيلي آخر من احدى مناطق الضفة. وقد حملت هذه المقابلة اول اشارة علنية الى حل "غزة - اريحا". بهذا المعنى، كانت اضافة اريحا بمثابةالثمن المطلوب من اسرائيل لتخليصها من غزة.

بيد ان المطالبة بهذا الثمن والحصول عليه لا يعنيان انتصاراً للمنظمة. فاذا كان استلام الحكم في اي منطقة تنسحب منها اسرائيل يتوافق مع المقررات السابقة للمجلس الوطني الفلسطيني، يبقى الاتفاق الرسمي مع اسرائيل، وهو دون الحد الادنى، انتقاصاً من الحقوق الوطنية الفلسطينية. اما لماذا وصلت منظمة التحرير الى القبول بهذا الانتقاص، فهذا هو المعيار الثاني لتقويم حل "غزة - اريحا". وهذه الأسباب معروفة، ويمكن اعتبارها من دون شك اسباباً تخفيفية، اذا شاء أحد محاكمة المنظمة: حصار مادي خانق من طرف دول الخليج، ضغط مصري مستمر، تحفز اردني للحلول محل المنظمة، ابتزاز اميركي باعطاء الاولوية للجبهة السورية، حتى لا نتحدث عن الضغط الأميركي على تونس من اجل دفع الحكومة التونسية الى التخلي عن استضافتها للمنظمة.

بازاء هذا الحصار، صار توقع انحلال المنظمة الرياضة المفضلة لدى معظم المعلقين. وصارت قيادة المنظمة تعتقد بدورها انها في حاجة ماسة الى احراز نتيجة قبل انفراط عقدها. وكانت المنظمة في هذه الظروف تعوّل على فرصة اخيرة: خرق الحصار من خلال الحوار المباشر مع اسرائيل. وهذا ما يفسر ربما المفارقة العجيبة التي شهدناها في الأسابيع الأخيرة، حين كنا نرى الولايات المتحدة تضغط على المسؤولين الاسرائيليين حتى لا يعطوا المنظمة هذه الفرصة الأخيرة. الا ان الحكومة الاسرائيلية صارت مقتنعة، على مايبدو، بعدم جدوى هذه السياسة. اي انها ادركت ان القدرة على المساومة عائدة الى منظمة التحرير، لا الى الوفد المفاوض، وان الآمال المعلّقة على خروج الوفد عن خط المنظمةمحكومة بالفشل، والأرجح ان احد اهداف زيارة شمعون بيريز الخاطفة الى وزير الخارجية الأميركي وارن كريستوفر كان لدفعه الى مشاطرته هذه القناعة. ولا شك ان اللقاء الأخير بين كريستوفر والوفد الفلسطيني ومن ثم قضية "استقالة" اعضاء الوفد، حضرا الوزير الأميركي لتقبّل الفكرة التي جاء يسوّقها بيريز.

وخلاصة الأمر ان اسرائيل، اذا شاءت احراز نجاح على طريق التخلص من عبء احتلال غزة، وتالياً في عملية السلام باسرها، صارت في حاجة الى حوار مباشر مع منظمة التحرير، ومع ياسر عرفات تحديداً. ولا يمكن هنا الا الاقرار مجدداً بقدرة هذا الرجل على العودة الى الواجهة بعد كل انتكاسة. فقبل شهرين، ما كان احد يجرؤ على مراهنة ليرة واحدة على مستقبله السياسي. وها هو اليوم يستعد للانتقال الى ارض فلسطينية، مهما تكن صغيرة.

وفي هذا الانتقال يكمن بالتأكيد المعيار الثالث والأهم لتقويم حل "غزة - اريحا". الا ان تحديد النجاح او الفشل في هذا المجال يبقى مبكراً. فالنجاح، كما الفشل، مرهون اولاً بالشروط التفصيلية التي سترعى تطبيق الحل، خصوصاً لجهة تحديد الارتباط بين المرحلة الاولى، اي غزة - اريحا، واتفاق الحكم الذاتي على كل المناطق الفلسطينية المحتلة. كذلك، يصعب التكهن بأي شيء طالما لم يتم الاتفاق على الجدول الزمني للانسحاب الاسرائيلي، وعلى صلاحيات سلطة الحكم الذاتي الفلسطينية.

غير ان نجاح الانتقال مرهون ايضاً بالطريقة التي سيُفهم بها في المجتمع الفلسطيني: تدجين ام ولادة ثانية للحركة الوطنية الفلسطينية؟ انه بالطبع السؤال الجوهري الذي يطرحه حل "غزة - اريحا اولاً". سيكون من السذاجة استبدال الانفعال المتشائم بآخر متفائل. لكننا نعرف ايضا، لأننا تعلمنا اهمية الرموز في تاريخنا كما في التاريخ الاسرائيلي، انه لن يبقى احد ليطرح السؤال عندما تطأ غداً قدم ياسر عرفات ارض غزة واريحا، اولاً.

سمير قصير